الشعر العامي اللبناني

بقلم مارون عبود

في هذا الجبل موسيقى داخلية لا تنقطع أبداً . موسيقى بعيدة القرار ، عذبة الهمنمة ، فمن غابة توشوش وتهمهم ، الى واد يترنم ، ومن نهر يثرثر ، الى كهوف ناطقة كالببغاء . انغام اجراس كبيرة وصغيرة، منها ما يتأرجح في القباب ومنها ما ينوس في الرقاب، رقاب الدواجن على اختلاف انواعها ، رنات تحيا وتموت رويداً رويداً، موسيقى آبدة لا تطفر على الذرى حتى تهبط الى الأودية فتتغلغل في ثناياها قاطعة طريقها الى اللانهاية .

اللهم رحماك ! لقد استيقظ مارون عبود العتيق ، ولكن ما يضر ، فلنمض في اسلوب هجرناه وتنكرنا له . ان لكل شيء في لبنان موسيقاه الهائمة في منعطفاته ، النائمة في التواءاته ، المندسة في الآبار والهُوى . الجماد والنبات والحيوان والانسان يتعاونون في لبنان تعاوناً لا تشوبه السياسة ، فيؤلفون جميعاً موسيقى لاهوتية ، توقظ الناسوت الكامن وراء الشعور . إذا استيقظت في لجة الليل فلست تظفر بسكوت تام اذا كنت ممن يسمعون . لا بد من شيء يناجيك فتشرئب حواسك الهاجعة ، وتثور عاطفتك المهومة ، اذا كنت لشيء آخر الليل تسهر . اشباح وهمسات تهبط مع الندى ، وضبابات تسربل القمم وتعممها ، فتهيم وعليها أبهة المحرم وجلاله ، ثم ترتفع محتشمة ، جارة أذيالها بوقار لتتحول في الأعالي صوراً وتماثيل لا عيب فيها غير انها لا تدوم . اما الفجر الرمادي فيصب في نفسك ذوب ترانيمه وطيوبه فتسكر ولا تفيق ، حتى يقبل القرص الذهبي فتخاله في متناول يدك ، لو تطاولت قليلاً .

ان الشمس في معظم القرى اللبنانية ، وخصوصاً في ضيعتنا قريبة من الناس ، فنحن وهي في مناجاة ابدية ، لا تبتعد عنا إلا اذا اعتدل ميزان النهار ، ثم تعود الى الدنو منا، ولكننا لا نلتقي ، فكأننا طفلان يلعبان على رمل الأبدية ، ولا يدرك احدهما الآخر .

اما اعراس لبنان فكثيرة . هنا راع ينفخ في شبابته او يرقص اصابعه على حجرات قضبتيه المضمومتين ، وهناك مكار يزجر بالعتابا في عتمة الليل ، ويترنح بالميجانا والمعنى والمواليا والروزانا على إيقاع اجراس بغاله وجلاجل مركوبه . وفي هذا المنحنى امرأة تنتجع لأهلها الهندباء والحبيزة والقرصعني والحماضة والكرّاث وهي تنوح على فقيد عزيز . واذا قعدت في بيتها تنقّي القمح والبرغل من الزوان والشيلم غنت طروبة ، والمثل يقول : خليها تنقّي وتغني ولا (تسلّق) وتنوح . حتى اذا ما بكى صغيرها هزت له وغنت موّنة صوتها لينام على سرور .

وهناك فتاة سمراء ترقص حول اهدابها مردة الأنوثة ، وتسبح في بركتي عينيها جنيّات الهوى ، قد هاجتها الذكرى فرفعت صوتها العذب باناشيد جبلية ، كأنها أغاني الساروفيم حول عرش الراكب على الكاروبيم صاحب الحول والطول .. وهناك حطّاب يوقع ابيات (القرّادي) على ضربات فأسه فتتعاضد الأصوات وتتحد فتخلق موسيقى الغاب ، ويهب الصدى الى نجدة الاثنين فيسبح السامع في عالم الأحلام والخيال.

واذا مررت امام هيكل سمعت ألحان الكاهن التائهة في عنايا الكنيسة وسراديبها . الشمّاس يوقع ضربات ناقوسه على ترتيله ، والخوري يرنّ ويعول ، واذا كان يوم احد او عيد فهناك صنوج تزعق وتفر اصواتها هنا وهناك حتى تملأ الآبار العتيقة فتنتعش وتحيا .

ولا ننس الأصوات الرخيمة التي تنثرها المآذن ، انها تنتقل من سطح الى سطح ، فتجتاز الأبعاد والآماد حتى تلج اعمق اعماق النفوس ، فتطرب وتهدي وتحيي عظام النفوس وهي رميم . سبحانك اللهم كم جمعت في لبنان من جمال ، لو كان لنفوسنا منه قسم وافر لكنا خير بقاع الدنيا . اما قال شوقي في لبنان :

لبنان والخلد اختراع الله لم يوسم بأبهى منهما ملكوته

اجل انها موسيقى تصادفها أنّى مشيت ، فالأوابد من طير وحيوان لا تتوانى قط عن اقتناص الطرب . هي ايضاً كناس لبنان فرحة ، جذلة ، مرحة . فبينا انت تفكر اذا برف حجال يتكلم ، او يفر — ان كنت ماشياً — فترتعد وتبدأبين حنايا ضلوعك موسيقى قلبك الرعّاد، ثم يناجيك حسون معتذراً

عن فظاظة الحجل .

هذا عالم ما كنت تحلم به لولا إسراع ما في لبنان الى نجدتك ونقلك الى دنيا المعاني . لا شيء صامت في الجبل ، فمهما حاولت ان تظفر بدقيقة صمت فانك لا تجدها ابداً إن كنت من المتأملين والملاحظين . فكل ما في لبنان يوحي الشعر ، بل هو كله شعر أزلي ، فسبحان الشاعر الأعظم ناظم هذه القصيدة الخالدة . يكاد ان يكون كل لبناني شاعراً ، وما اشبه اللبنانيين باخوانهم الأندلسيين الذين قالوا الشعر جميعاً . ان للمحيط اكبر يد في إيقاظ الشاعرية الكامنة ، وإذا كان للأندلسيين الكان والكان والقوما والدوبيت فللبنانيين العتاق : الميجانا – ياماجانا – وهلا بالورادا – اهلاً بالواردة ، والعتابا – العتاب – والمعنى اي شعر الوجد والهيام ، وجميع انواع الزجل .

لقد حان لنا ان نعير هذا الشعر الطبيعي شيئاً من اهتمامنا ، فشعراؤه يغنون لنا ابداً ونحن صامتون لا نقول لهم : عاشت الشباب ! ! اننا معهم ككافور مع ابي الطيب ، الشاعر يغني كل حين ، وكافور يشرب ولا يدع في الكأس فضلة ...

عشتم يا اخوتي ، فأنتم شعراؤنا ، ان شعركم منبثق من نفوسنا ، من قلوبنا ، من اعماق حياتنا ، من ظلمات اوديتنا . وثرثرات انهارنا وجداولنا ، من اضوائنا وظلماتنا ، من عرازيلنا وخيامنا ، من يقظة عجائزنا ، واحلام صبايانا . انه منسوج من خيوط شمسنا الذهبية . لحمته من رواء البنفسج ، وسداه من خيوط القلوب ، وحياته الفنية من هواء وماء هذا الجبل المتصوف . لقد زال تعجبي من تذوق الرواة للشعر الجاهلي ، بعدما رأيت اعجاب الناس بهذا الشعر العامي ، فاعجاب الاعراب بالشعر القديم متأت عن شعورهم التام بما سمعوا . الشعر الجاهلي منبثق من حياتهم ، ومن لغتهم التي تصور محيطهم أصدق تصوير ، ومن لهجتهم التي ترسم لهم الصورة ناتئة بارزة . وما الالفاظ إلا ألوان وأصوات واحياء وحركات ، عند من يحسها ويدركها . ان الشعور بالحياة وادراكها الكامل لا يكونان تامين إذا عبرت عنها بغير اللغة الدائرة على الألسنة ، وبهذا يثير شاعرنا العامي النفوس اثارة يعجز عنها اكبر شعرائنا (الرسميين) . إذا انشد الشاعر العامي قصيدة في حفلة تهتز المقاعد والكراسي استحساناً ، وتموج الرؤوس كالأغصان تحت اذيال النسيم الولهان .

ان ما يوحيه الينا الزجال لا يأتي بشيء من مثله شاعر اليوم الذي يستوحي الكتب ويعبر للناس عن الحياة بألفاظ يدركونها ربع ادراك .

اني ارى صورة حية نابضة راقصة ملونة في هذا الشعر ولهذا اراني اغير هذا الاهتمام . قد سبقت مني كلمة منذ اعوام حذرت بها الشعراء الفصحاء وحثثتهم على الدنو من الحياة خوفاً عليهم من هذا الشعر النابض ، واليوم ارى ان هذا الشعر قد استقام ، واستوى فامسى ادباً قائماً برأسه . صار فناً له تعابيره وصوره واستعاراته ، ورجاله وخياله ، وتشابيهه وكناياته وبديعه ، واسمحوا لي ان اقول ايضاً : ووزنه وعروضه واساليبه فكيف نعمى عنه ، اذن ، وكيف نتجاهله ؟

ألأنه غير معرب ؟ . ألم يكن الشعر الجاهلي مثله في ذلك الزمان !

يدهشني ما أراه من تطور سريع في هذا الادب الشعبي حتى كدت ألمس مدارسه من كلاسيكية ورومنتيكية ورمزية وهذا ما سنتحدث عنه في قابل . فمن يفتش عن تاريخ عروبة لبنان فليطلبها في هذا (القول) فهو ابن عم الشعر الفصيح ان لم يكن اخاه . انه شاهد عدل على حب هذا الوطن للغة الضاد حتى تعاونت جميع طبقاته على احيائها والابداع فيها . لقد ظفر هذا الشعر بجرائده الخاصة به ، بنواديه وعصاباته . وله حفلاته التي تملأ النفوس طرباً ، وله تناطح شعرائه حول الامارة فهو شعر يباري شعرنا الفصيح ويبزه في الايحاء لانه منبثق من قلب الحياة والواقع ويستمد خياله الحلو من محيطنا الذي الفناه والمرء على ما يألف ، فاشدّ البنين حباً لوالديه اكثرهم الفة لهما .. وإلا فلا ابوة ولا امومة ..

ان لهذا الشعر عباراته التي تخرج من افواهنا لتقع في نفوسنا وتؤدي لنا المعنى غير منقوص ، وقد رأيت آفاقه تتسع ، وغايته تذهب الى المدى الأبعد . تنظم فيه الاقاصيص ويحاول تصوير الوقائع حتى قطع اشواطاً مديدة في زمن قصير .

قال الجاحظ : متى سمعت ، حفظك الله ، بنادرة من كلام الاعراب فاياك وان تحكيها إلا مع اعرابها ، ومخارج الفاظها . فانك إن غيرتها بأن تلحن في اعرابها واخرجتها مخرج كلام المولّدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطغام ، فاياك وان تستعمل فيها الاعراب أو ان تتخير لها لفظاً حسناً ، أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً ، فان ذلك

يفسد الامتاع بها ، ويخرجها من صورتها ومن الذي أريد له ، وتذهب استطابتهم اياها واستملاحهم لها .

وانا إن خفت على هذا الشعر العامي من شيء فلست اخاف عليه إلا من تفاصحه . لا يا اصحابي ، اياكم ثم اياكم . اسمعوا نصيحتي وافهموا ما يعنيه ابو الادب ، ابو عثمان المليح الذوق والروح . سوف اتحدث اليكم وعنكم ، وسوف اتناولكم بالنقد ، فلا ابخل عليكم بالاطراء حيث يقتضي الحال . إنكم تقولون شعراً حياً من وحي مدرسة (تحت السنديانة) ونعمت المدرسة هي ، وسيظل أشعر الناس منكم ذاك الذي لا يبرح ظلها ليقعد بين اربعة حيطان ..

وبعد ، فما انا ببخيل بالثناء كما تظنون . ما حاولت لذع الأدباء والشعراء الا بقصد الاصلاح وعن حسن نية ولكن النقد مكروه كيفما دارت به الحال ، والانسان يحب الثناء . ما جرحت اديباً أو شاعراً تشفياً أو حسداً ، كما يتهم المؤلفون نقادهم . فانا لم ابغ إلا استقامة ادبنا العربي وتوجيهه توجيهاً متيناً صحيحاً . فلبنان كان ولا يزال الخادم الامين لهذا اللسان ، وكذلك يجب ان يظل دائماً ، فهلموا بنا يا اخواني الى درس ادبكم درساً يحله المنزلة التي أولياها ادبنا الناطق باللغة الفصحى .

تعود الناس كلما ذكروا ادباً ان يؤرخوه ، وهذا الأدب العامي أرخه كثيرون ، واحدث هؤلاء كان صديقنا الاستاذ الجليل امين نخله حين قدم لديوان ابيه امير الزجل المرحوم رشيد بك نخله . ان تلك المقدمة على قصرها كافية وافية وفيها تحقيق كثير ، واخيراً ظهر كتاب نفيس للعالم النفساني الاستاذ منير وهيبة الخازني الغساني . ضم هذا الكتاب تاريخ الزجل وادبه واعلامه قديماً وحديثاً ، وقد اعجب الناس به حين ظهر عام اول فتنادوا الى تكريم صاحبه . لقد استحق الاستاذ وهيبه هذا التكريم مرتين : الاولى لانه مؤلف ملحمة ياجوج وماجوج التي اخرجت الزجل من نطاقه الضيق . والثانية بمناسبة صدور كتابه تاريخ الزجل .

انني اهني الاستاذ وهيبه بكتابه وان كنت لا اشايعه على كل ما جاء فيه كتأييد العامية تأييداً مطلقاً . فانا عدو هذه العامية بعفشها ونفشها . ولا احب ان اسمع ان فينا من يدعو اليها في الادب لانني اخاف على مجد لبنان الادبي ان تتزعزع آساسه .

كنا مرة نفحص تلامذة البكالوريا في مدرسة حوض الولاية ومدرسة حوض الولاية كانوا يقولون انها عايبه ، فشرع سمعي الخوري مارون غصن ، داعي دعاة اللغة العامية في ذلك الحين يحدثني عن كتابه الذي عنوانه (ما في متلو هالكتاب) فاحتدم الجدل بيني وبينه . كان رحمه الله كبير الهامة ، وقد عملوه منسنيوراً جديداً ، ولكل جديد بهجة ، فكبر الازرار الحمر ، وعرّض الزنار البنفسجي ، وغل عنقه بسلسلة ذهبية كالزنجير ، وحمل عصا كالنبوت ، فكان يخبط بها الأرض عند كل جملة ، ولما خفت ان يغلبني بتهاويله استعنت بالنكتة فلبتني حالاً ، كعادتها في الازمات . قلت له : على مهلك يا محترم ، يقولون ان هذه البناية مزعزعة فكيف تحمل مارونين . فشمّع ابونا الحيط وقعدنا نضحك .

ان في استطاعتنا ان نستعمل ألفاظاً وتعابير كثيرة دون ان نكتب بالعامية ، فهي أداة غير صالحة للنثر الفني . فالروعة الفنية التي تجدها في شعر جلنار ميشال طراد لا تجد شيئاً منها في مقدمته التي كتبها الشاعر سعيد عقل .

ان لبنان لم يبرز في الشعر ولم تكن له فيه مدرسة إلا في هذا الزمن ، اما زجله فتفوق على زجل جميع الأقطار العربية . ولما كان لا بد من كلمة تاريخية أقول انني قرأت في كتاب الزجل للأستاذ وهيبه وغيره ، ان الناس يسألون من اين نشأ وكيف . فالجواب عندي بدون قيل وقالوا ، وزعموا : انه سرياني اللحن في اول عهده ، وعربيه فيما بعد . فالزجل الذي يعرف بالقرّادي هو وليد احد ميامر مار افرام الموجود في صلاة ستار الأحد : شويحو وهدرو وقولوسو ، لا لوهو إيتيو شبيحو . بريخ إيقوروخ من أتروخ ، على عطرو هونو ديسمي . نسبعون خفي من طوبيك ، وسنبقه من بوسوميك الخ .

واخيراً نظم السريان البسملة على هذا اللحن فقالوا : ابو وبرو وروح قودشو .

وعلى هذا اللحن نظم قدماء اللبنانيين المستعربين قصائد كثيرة ، ألهمهم إياها جهلهم الفصحى ، وشاعريتهم المتوثبة . اما المُغنى فحديث النشأة ، وليس معناه كما زعموا من الغناء . انه المعنّى ، اي شعر الحب بمعنى لفظة المعنّى التي عناها الشاعر بقوله :

ان شكوت الهوى فما انت منا فاحمل الصد والجفا يامعنّى

قلت ان الزجل كان سرياني الوزن اولاً ، عربياً ثانياً : فالمعنّى من البحر الكامل كقول شاعر مجهول الاسم منا :

بدّيت عدّ بيوت في شان الملاح تشبه غصون النخل بايام البلح

— البقية على الصفحة ٧٩ —

الشعر العامي اللبناني

— البقية من الصفحة ٥ —

يا قمر لولاك ما كان الفلـك يَوْ خالقك مولاك نقمي للرواح

الى ان يقول :

بدناتكون مبسوط خلينا نموت ونا كل البلوط من بعد البلح

والنوع الثاني عربي الوزن ايضاً مثل :

نحنا تركنا الجهل وسلينا يا ضيم قلبي راحت علينا
يا عشير إن طالت الأيام ترجع تدوّر ما تلاقينا
يا عشير إن طالت الأيام عافراقنا بتصير تتنـدم
يامركب اللي لوزمان ماعام ياو رابطو الريس عالمينا

اما صاحبنا القس يوسف الصوراتي وهو من شعراء بلادي فهو راهب خفيف الروح . طبع مرة عند احدهم علبة كرت واراد دفع الثمن ، فتمنع صاحب المطبعة ان يقبض منـه ، فشكره ارتجالاً بقوله له — بلا قافي هَهْ — :

ممنونك كتّر خـيرك طابعلي اسمي عاكروت

ان ابناء بلادي لم يدعوا لحناً سريانياً إلا نظموا على وزنه زجلًا عربياً . وقصة فتنة الرهبان على عهد القاصد لوشيفيكوس التي نظمها الخوري نعمة الله القدوم مشهورة جداً ، وفيها من الألحان السريانية الكنسية اشكال وألوان .

وقد كنت مرة في دير قزحيا وحضرت صلاة الحورس لأني احب السريانية وصوفية شعرها ، فسمعت الرهبان الشباب يلحنون صلاة (علمانو ندمخ شنتو) على نغم عالزينو زينو زينو اسمر ومكحل عينو ، فضحكت وسألني رئيس الدير بعد الصلاة عن سبب ضحكي فأخبرته ، فابتسم ابتسامـة صفرا وقال : يا منقومين .

والعتابا التي يتفرد بها لبنان مأخوذة من العتاب ، والميجانا منحوتة من يا ماجانا كما قلنا . ولا ننس انهم نظموا ايضاً بالعربية جنازاً للعب الورق ، وجنازاً للمهاجر الى اميركا . وانا عندما كنت طالباً عملت جنازاً للمطبخ في مدرسة مار يوحنا مارون فغضب الرئيس واكلت قتلة مشبعة ، بحجـة اني استهزأت بالطقوس الدينية ، اما الحقيقة فهي اني هجوت المطبخ ...

ان حديث ذكرياتي المدرسية اطول من حديث الحيـات فلندعه الآن . ومن الزجل شعر كثير مـات بموت الرواة ، وانا اعرف من قديمه ما ذكرت بعضه كما مر . واني اتمنى عـلى الباحثين ان يجمعوا ما بقي منه محفوظاً ، فليت الأستاذ وهيبه فتش عنه فنحن احوج اليه والى شعر ما قبل المعاصرين كشعر الخوري الخازني الظريف الذي قال في بنته نسيمه البشعة الوجه ، حينما خطفها احد شباب العوام في غيابه . عاد الى البيت فاستقبلته الخورية بالصراخ والولولة ، ولمـا عرف الخبر راح يفتش عن الدف ولما لم يجده تناول صينية الكبة ونقر عليها وصاح :

بحيث انّا نفقت نسيم مـا بقا يكسد حريم
ما في فول بلا مكيول ولا في قرّايه بلا شحيم

ألا لا رد الله ايام الحرب الأولى التي ذهبت بالكثيرين من رواة هذا الشعر البلدي ، قبل ان إتمكن من تدوين عتيقـه . وبكلمة مختصرة اقول : ان العامية اللبنانية لغة دف ومزمـار ودربكة وناي ، ولغة عاطفة وحب ، وسندرس اطوار شعرها ومدارسه ان شاء الله .

عين كفاع **مارون عبود**

دار بيروت — للطباعة والنشر

بناية اللعازارية . تلفون ٣٥٣ بيروت — لبنان

المجموعة الجنسية

تعالج اهم القضايا الجنسيه على ضوء العلم الحديث

ظهر منها :		ق.ل
الحب بدون خوف	للدكتور استاس تشلر	١٠٠
الحب والحياة الزوجية	〃 ماري ستوب	١٠٠
طريق الحب	〃 بروك	١٠٠
الحب الكامل	〃 مادلين وولف	١٠٠
العلم في خدمة الحب	〃 فان دي فيلد	١٠٠
جنة الحب	〃 اوامكو	١٠٠
الطب في خدمة الحب	〃 بياترا	١٠٠
ربيع الحب	〃 اديت كارنو	١٠٠
الضعف التناسلي	〃 وليم شتيكل	١٠٠

تطلب هذه الكتب وغيرها من منشورات الدار من :

وكيل الدار في عموم افريقيا السيد محمد خوجه — تونس

وكيل الدار في عموم العراق السيد محمود حلمي — بغداد